لاون الثالث عشر والعلوم

نبذة للاب موريس كولنجت اليسوعي

ان كان البابوات لم يألوا جهدهم في توطيد اركان المجتمع الانساني ليس فضلهم باقلّ في نشرّ المعارف البشريّة. وقد اقرّ اعداء الكثلكة انفسهم بهذا الامر حتى شاع قول احد الكتبة البروتستانت: « لولا الاحبار الرومانيون لبقيت اوربّة متسكّعةً في ظلام الجهل مدّة قرون عديدة »

وللاون الثالث عشر اعمال تنطق بحبّه للاداب البشريّة والمعارف والانسانيّة تجعلهُ شبيهًا بسميه لاون العاشر الذي عُرف بهِ عصرهُ فدُعي عصر لاون العاشر. ولا غرو فان للاوننا شعارًا أبى ان يدعهُ اسمًا فارغًا فاضحى « نورًا في السماء » ليس فقط بنشر ضياء الايمان ولكن ايضًا برفع منار العلوم وبثّ اشعّة الآداب

ولو تصفّحنا حياة هذا الحبر الجليل لرأيناهُ اهلًا بان يُنظم في ائمّة علماء عصرهِ بل هو جدير بان يتقدّمهم لما احرزهُ من المعارف الجليلة. وللاباء اليسوعيين معلّميهِ شهادات عديدة تُثبت ما كان مطبوعًا عليهِ منذ حداثة سنّهِ من توقّد الفهم ونجابة القلب اذ أصاب بين رفقتهِ قصبات السبق في كلّ فروع العلوم. وقداستهُ يعرف عشر لغات ويتقن التكلم والكتابة بخمس منها. ولهُ اليد الطولى في الكتابة كما تشهد على ذلك رسائلهُ العديدة واكثرها من قلمهِ السيّال اكسبتهُ اسمًا ممتازًا بين ابرع كتّاب عصرهِ. ومما يدهش اهل النقد والبصر انهُ يكتب اللاتينيّة ببلاغة وطلاوة عجيبتين قلّما ادركها المعاصرون.

ولهُ ديوان شعر في مواضيع دينيـة وعلميَّة وادبية كلُّهُ فرائد لا يزال يضيف اليهِ كلَّ يوم قصائد رنَّانة يخال لقارئها انَّ ناظمها في عزّ الشباب يودعها من المعاني افخمها ومن التخيُّـلات والتشابيه ارقّها واسجعها فعدَّهُ اصحاب الذوق من افحـل الشعراء وابعدهم مجالًا في فنون القريض

ولمَّا صارت الى يدي قداستهِ ازمَّة البابويَّة لم يشأ ان يمشي ارباب الدين في مؤخر جيش العلوم بل اراد ان تكون المعارف معزَّزةً زاهيةً في الكنيسة امّ التمدُّن والنجاح ليتحقَّق النـاس انَّ الدين والعلم كفرسي رهان وكاخوين شقيقين ليس بينهما مناقضة البتَّة

وباشر قداستهُ بنشر لواء العلم في رومية ام المدائن . وكان اوَّل همّهِ بالأحداث لاسيما الفقراء منهم فانَّهُ في السنة ١٨٧٩ عُني بتنظيم المدارس الاوَّليَّة وحسَّن فيها التعليم وخصَّص لها في كل سنة مئة الف فرنك تُصرف في صوالحها

ثمَّ وجَّه قداستهُ العناية الى المدارس الثانويَّة فانشأ المدرسة اللاونيَّة وجهَّزها بكل لوازم التعليم وعهد بتدبيرها الى مشاهير اساتذة رومية وهي اليوم حافلة بالطلَّاب تباري احسن المدارس علمًا وتهذيبًا

ولمَّا رأى امام الاحبار انَّ مدرسة انتشار الايمان أصابها بعض التقهقر في الدروس تسارع الى تلافي الامر ولم يزل يجـدُّ ساعيًا في اصلاح الخلل حتى تداركهُ تمامًا واعاد لهـذه المدرسة الشهيرة رونقها السابق بل انشأ فيها نشاطًا لم تعرفهُ من ذي قبل

وكذلك الكليَّة الغريغوريَّة التي يديرها الاباء اليسوعيون في رومية فانَّ قداستهُ احبَّ ان لا ينقصها شيء من اسباب الكمال التي

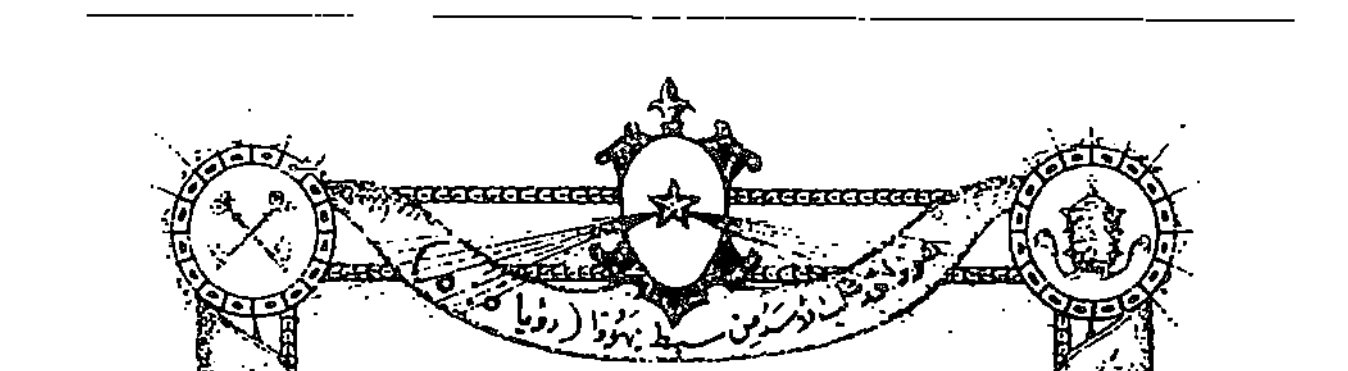

اعتادتهُ منذ ثلاثمائة سنة فنشَّط تلامذتها وشدَّ أزرها بمشاهير المعلمين . فمنها عدد طلَّابها من ٤٠٠ الى ١٢٠٠ وهم لا يتلقَّنون فيها سوى العلوم العالية

ولا نعدّد هنا خوفاً من الاطالة المسَّة عدَّة مدارس أُخر تقدم لاون الثالث عشر بانشائها كالمدرسة البوهيميَّة والمدرسة البرتوغيَّة والمدرسة المارونيَّة والمدرسة الارمنيَّة والمدرسة اليونانيَّة فان المسافر الذي يزور مدينة الباباوات لا يخطو اليوم خطوةً دون ان يرى في كل حي من احيائها أثرًا من هذه الآثار المجيدة الناطقة بفضل لاون ابي العلوم والمعارف

ولحبرنا الجليل عدَّة محافل ادبيَّة انشأها في رومية لرفع منار العارم اكبرها « المحفل الادبي البابوي » يبحث اصحابهُ عن آداب اليونان والرومان والطليان تمَّ افتتاحهُ سنة ١٨٨٥

ومن منشآت الاب الاقدس في عاصمة الكثلكة « المحفل التُّومَوي » احدثهُ لاعلاء منار الدروس اللاهوتية والفلسفيَّة وفقاً لتعاليم القديس توما الاكويني شمس المدارس

وكانت المجامع العلمية المنشأة من اسلاف قداسته أُصيبت بضربة لازبة مذ دخول الجنود الايطاليَّة في رومية فتنفخ فيها سجين الفاتيكان نسمة حياة جديدة. منها جمعيَّة لينشاي (Acad. dei Nuovi Lincei) التي دخلت منذ سنة ١٨٨٣ في طور جديد مذ خصَّها قداستهُ بمعاهد فسيحة وحمل اعضاءها على العمل . ومدار ابحاثها على الرياضيَّات والطبيعيَّات والاديبات لها مجلَّة شهيرة تنشر تآليف اعضائها في كل سنة

ومنها « جمعيّة العاديّات البابويّة » كان تشتّت شمل اصحابها فجمع حبرنا الجليل كلمتهم وامرهم بمواصلة اشغالهم ثمّ نشر على حسابه الخاصّ ما تأخر من تآليف الجمعيّة وجعل لها ريعاً سنويّاً كافياً لترقّي امورها. وبهمّة قداسته عقدت هذه الجمعيّة في ١٧ نيسان سنة ١٩٠٠ ذاك المؤتمر الشهير الذي اجتمع فيه اكبر علماء العاديّات فتباحثوا عن الآثار المسيحيّة القديمة. وكان لابحاثهم الجليلة صدًى ردّدتهُ كلُّ الجمعيّات العلمية في اوربّة

ومنها جمعية ادبيّة تُعرف بالاركاد (Acad. des Arcades) انهضها البابا من خمولها وخوّلها انعامات شتى

ولابينا الاقدس مساعٍ أُخرى عديدة في نشر العلوم والآداب في حاضرة مملكته نخصُّ منها بالذكر انشاء المرصد الفاتيكاني اقامهُ على نفقات الكرسي الرسولي بدلًا من مرصد اليسوعيين في المدرسة الرومانية الذي استولت عليه دولة ايطاليا قسرًا. فجاء المرصد الجديد آيةً في بابه تزينهُ الآلات الفلكية التي لا تُرى الّا في مراصد الدول الكبرى لتعريف حركات السماء وآثار الجوّ وحساب الازمنة. وفيه تلك العدسة العظمى التي جهّزها قداستهُ لرسم خارطة السماء. وهو عمل جليل لم يُسبق اليه يشتغل فيه علماء الفاتيكان في مقدّمة مشاهير الفلكيين الاوربيين. وقد سلّم لاون الثالث عشر ادارة هذا المرصد للاب دِنزا البرناني. ولقداسته مرصدٌ آخر اقامهُ في كَرْبيناتو مسقط رأسه

ومن حسن مساعي سيّد الفاتيكان عنايتهُ في المتحف البابوي الذي يقرُّ العلماء انهُ من اقدم واجمل المتاحف في البسيطة كلها. وقد فتح لهُ قداستهُ قاعات جديدة ورمّم ما خرب منهُ وجدّد نقوش معاهده

(راجع المشرق ٤: ٢٨٤) ونقل اليهِ عددًا لا يحصى من النفائس مثل الطنافس البديعة الغالية الثمن المعروفة بالتوبلين عرضها وظلَّمها على حسب تاريخها بعد ان كانت مودعة في زوايا النسيان. ومنها آثار الصنائع والفنون قدَّمها العالم الكاثوليكي للاب الاقدس في فرصة يوبيلهِ الكهنوتي. ومنها عاديَّات اكتشفها علماء الڤاتيكان او الكاثوليك

ومما يُشكر لقداستهِ كلفُهُ بالآثار الدينيَّة الغابرة فرمَّم بعض الكنائس القديمة في رومية وجدَّد ما بار من هندستها العجيبة وهو الذي اصلح حنيَّة كنيسة لاتران الملكية واهتمَّ بتحسينات أخرى في المعبد السكستي الشهير وكنيسة مار بطرس العظمى

ومن مشروعاتهِ انهُ سعى السعي المشكور في تنظيم المكتبة الڤاتيكانية وتوسيع قاعاتها وفتحها لجمهور العلماء وزاد عدد خدمتها. وهذه المكتبة حافلة بالمخطوطات القديمة في كل فنّ وليس لها مجارٍ في عدد وقدر تآليفها الدينية. اما مطبوعاتها فقد بلَغ قداستهُ عددها الى ٤٠٠٠٠ مجلد

وكذلك فتح الاب الاقدس لائمة العلماء دون تمييز في ملتهم ومحلهم مكتبةً أخرى في الڤاتيكان تتضمَّن كل اعمال الكرسي الرسولي السرِّيَّة منذ الزمن القديم الى يومنا منها مكاتبات رسميَّة وبراءات ومناشير واعمال مجامع واوراق دعاوي الى غير ذلك مما كان يحتفظهُ الباباوات الى يومنا فاحبَّ لاون الثالث عشر ان يطَّلع عليهِ العالم كلُّهُ فيرى ما للاحبار الرومانيين من المآثر الجليلة في كل عصر فكان لهذا العمل احسن وقع لدى العلماء وارسلت مذ ذاك الحين كل دولة بعثاتٍ علمية لتنال من هذه الكنوز المطمورة فتنشرها بالطبع.

وللابوين دينفله الدومينيكي واهرله اليسوعي في تقريب هذا المشروع ايادٍ شكرها لهما كلّ رجال العلم. وقد وكل اليهما الاب الاقدس نظارة هذه المخطوطات القديمة ليصوناها من التلف ويُصلحا ما دثر منها

ومن الخدم الجليلة التي ادّاها قداستهُ للاداب اهتمامهُ بطبعة انتشار الاعيان التي اكتسبت لها في الاعصار السالفة اسماً طيباً. فاراد ان تجاري مطابع العواصم الكبرى فلا تحتاج الى شيء من ادوات الطباعة وما يلحق بها. وقد نُشر في هذا ربع القرن تآليف عديدة في لغات شتى تنطق بفضل الاب الاقدس نخصُّ منها بالذكر دياطاسرون ططيانس بالعربيَّة (المشرق ٤: ١٠٠) ورسم نسخة الكتاب الكريم المعروفة بالفاتيكانيَّة (Codex Vaticanus) الراقية الى عهد قسطنطين الملك وكذلك رُسم الانجيل اليوناني بالفوتوغرافيَّة والطبع الحجري في السنة الماضية وغير ذلك مما لا يسمح المكان بتعداده

وقد عرف قداسة الحبر الاعظم ما ينجم عن فنّ الطباعة من المنافع الجمَّة ولذلك قد حرَّض مرارًا الكاثوليك على استخدام هذه الوسيلة للمدافعة عن الحقّ وكشف الضلال. وقد ذكر هذا الامر في رسالتهِ الصادرة في ١٩ آذار سنة ١٨٩٦ التي يحضُّ فيها الشرقيين على إنجاح الصوالح الكاثوليكيَّة في الشرق. ولهذا السبب تقدَّم الاب الاقدس الى كثيرين من العلماء بان ينشئوا مجلَّات علميَّة كاثوليكيَّة تراها اليوم زاهرة تبثُّ مع المعارف البشريَّة المبادئ الصحيحة في العالم كلهِ منها مجلة الشرق المسيحي في باريس ومجلة بساريون (Bessarione) في فلورنسة ومجلة العالم الكاثوليكي (Cosmos catholicus) في رومية هذا فضلاً عن الجرائد والنشرات العديدة في كل اللغات الشائعة

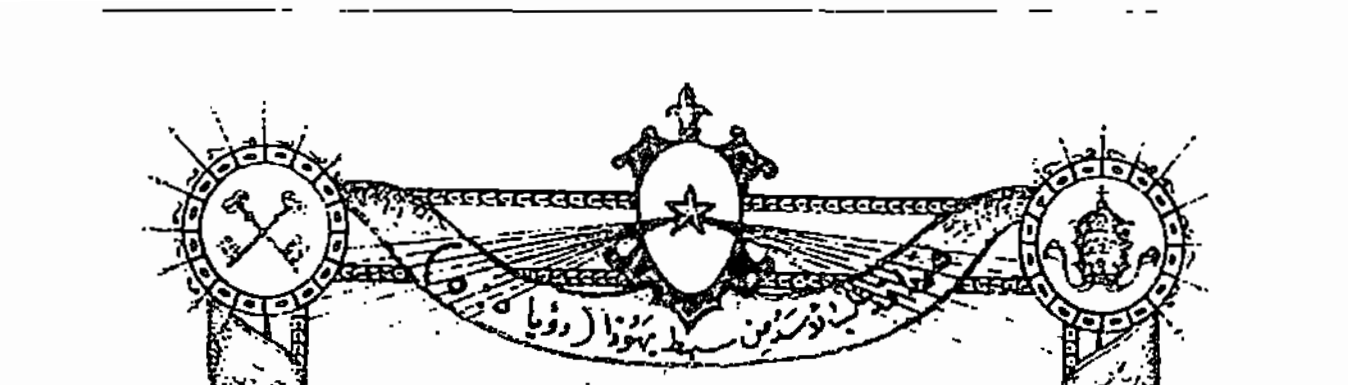

ولم يكتف شيخ الڤاتيكان بتعزيز جانب العلوم والآداب في حاضرة الكثلكة بل شملت همتهُ اربع خوافق المسكونة فهو الذي انشأ مدرسة اناني (Anagni) للدروس الاكليريكية العليا ومدرسة سيلان للاقطار الهندية وكاتاها تحت تدبير الآباء اليسوعيين وانشأ كلّيّة واشنطون في الولاية المتحدة وكلّيّة فريبورغ في سويسرة واحدث فرعًا للدروس اللاهوتيّة في لوڤان في بلجكة. ومن فضل قداستهِ قد نالت كليّتنا في بيروت فانّهُ هو أيّدهُ الله الذي مكّنها من مَنح الامتيازات الخاصّة بالكليّات العظمى في اللاهوت والفلسفة وفروعهما

وقد اضاف قداستهُ الى كل هذه الاعمال الخطيرة رسالات عجيبة يربي عددها على العشرين رسالة انفذها الى كلّ انحاء المعمور ودفع فيها الكاثوليك على الإقدام في جادّة العلوم اجمالًا وافرادًا. وقد اضحت هذه الرسائل اشهر من نار على علم لما ضمّنها الاب الأقدس من البراهين السديدة والاقوال البليغة نخصُّ منها بالذكر رسالتهُ العجيبة في الفلسفة (في ٤ آب سنة ١٨٧٩) أزال فيها الخلاف في تدريس الفلسفة بين الكاثوليك ورسالتهُ عن درس الاسفار المقدسة (سنة ١٨٩٣) ورسالتهُ في الدروس التاريخيّة (سنة ١٨٨٤)

أفليس يحقّ للكاثوليك بل لكلّ محبي الآداب والعلوم في ختام هذه النبذة الموجزة ان يطلقوا لسانهم بالشكر على لاون الثالث عشر ويقرّوا جهارًا انّ الله قد اقامهُ حقيقةً في فلك كنيستهِ فجعلهُ كيدهِ المسيح الذي هو ينوب عنهُ « نورًا ينجلي للامم ومجدًا لشعبهُ اسرائيل » (لوقا ٢ : ٣٢)